(٤٩) ماهشەرفخانم مەستورى كوردستانى، مێژووى ئەردەلان، و: حسن جاف وشكور مصطفى، بەغدا، ١٩٨٩، ص٣٣

(٥٠) نورس، العراق في العهد العثماني، ص٢٥.

(٥١) ابراهيم خليل احمد وخليل على مراد، المصدر السابق، ص ٤٧ ومابعدها : لجنة دعم شعب أفغانستان (بلجيكا)، أفغانستان بلاد الإسلام، بيروت، ١٩٨١، ص٨٥.

(٥٢) استيفن همسلي لونكريك، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ت: جعفر الخياط، بغداد، ١٩٨٥، ص١٦٧ ومابعدها.

(٥٣) الشيخ رسول الكركوكلي، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، ت: موسي كاظم نورس، بيروت، د.ت، ص١٤٩ ومابعدها.

(٥٤) الكركوكلي، المصدر السابق، ص ص ١٤٦-١٥٢ : علاء نورس، المصدر السابق، ص ص ٢٣٦-٢٣٨.

(٥٥) يوسف نعيسة، ملكية الارض والعلاقات الزراعية في بلاد الشام في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان ٣٥-٣٦، ١٩٩٠، ص١٦١.

(٥٦) ن. أ. خالفين، الصراع على كوردستان (المسالة الكوردية في العلاقات الدولية خلال القرن التاسع عشر)، ت: احمد عثمان ابوبكر، مطبعة الشعب، بغداد، ١٩٦٩، ص١٣.

الفصل الأول

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في كوردستان

المبحث الأول: الوضـع الاجتماعي
المبحث الثاني: الوضع الاقتصادي
المبحث الثالث: الوضـــع الثقـافي

المبحث الأول: الوضع الاجتماعي

تعتبر الأسرة الكوردية اللبنة الأساسية للمجتمع الكوردي وهي مؤسسة اجتماعية قائدها الزوج والزوجة تربطهما روابط اجتماعية متينة وتتكون من الأب وألام والأولاد[١] والشخص يعتد في الحقيقة ضمن أسرته وقبيلته، فالأسرة هي التي كانت تنظم حياة أعضائها جميعا بطوابعها الاجتماعية والقانونية[٢]، أما رئاسة الأسرة الكوردية فهي رئاسة أبوية إذ يمتلك الأب السلطة الوحيدة على أعضاء العائلة، ويتميز المجتمع الكوردي أيضا بوجود الأسر الواسعة، والأسرة الواسعة كانت تشمل الجد ومعه أولاده المتزوجون وأولاد أولاده وكانوا جميعا يكونون بنيان أسرة واحدة ويعيشون في بناء واحد ومالية مشتركة وعند وفاة الجد يحل محله ابنه الأكبر غالبا لإدارة شؤون الأسرة ولم يكن أحد الأخوان ينتقل إلى مسكن أخر إلا لأسباب معينة كحصول خلاف بين أفراد الأسرة[٣].

يعود ظهور الأسر الواسعة في كوردستان إلى العامل الاقتصادي بالدرجة الأولى فالمجتمعات الكوردية أما أن تكون زراعية أو رعوية ومنهم من يمارس المهنتين معا. أي أن مجال العمل في الأراضي أو المراعي، ومجال العمل هذا يضطر الأبناء إلى الاستمرار في العمل مع ابائهم حتى في حالة نضجهم مما يضطرهم إلى البقاء في نفس البيت عند زواجهم لان ذلك يناسب حياتهم العملية[٤]، وهم بحاجة إلى عامل التعاون بين هذا العدد الكبير من أفراد الأسرة لغرض توزيع الأعمال الزراعية أو تربية الحيوانات لانه ليس بإمكان فرد واحد أو عدد محدود منهم القيام بالأعمال المتنوعة لذلك كانت توزع بين أفراد الأسرة[٥].

يصف جوستن بيركنس العائلة الكوردية ويقول ((العائلة الكوردية متماسكة فيما بينها ومترابطة في تكوينها، يتصف الرجل بصلابته والمرأة بقوتها ... وكيف إنها تحمل مهد طفلها على ظهرها، وهي تراقب بقية أطفالها الذين حواليها، وهم يسيرون معها))[٦].

كان النظام الاجتماعي السائد في كوردستان هو النظام القبلي القائم على التنظيمات العشائرية واللاعشائرية، وينتمي الرعاة الرحل إلى العشائريين في حين إن الفلاحين المستقرين هم من اللاعشائريين بالرغم من انهم فيما مضى كانوا ينتمون إلى عشائر معينة وكانوا يحترفون الرعي، إلا انهم وجدوا ظروفا مناسبة للاستقرار والعمل في الزراعة وضعفت صلاتهم بقبائلهم حتى انقطعت تماما ولم يعودوا، في بعض الحالات، يعتبرون أنفسهم عشائريين[٧]، والرحل هم في طريقهم إلى الاستقرار باستمرار[٨].

يصف مارتن فان برونسن الحياة الاجتماعية في كوردستان حيث يقول ((ولكل قبيلة[٩] مقاتليها كجيش، ولها سياساتها الخاصة ولها مراكز نفوذ اجتماعية في الارياف المجاورة لها، وكانوا غالبا ما يسيطرون على التجمعات الفلاحية الذين ليس لديهم تنظيما قبليا، وكلما كبرت وازدادت قوة القبيلة ازداد نفوذها وتوسعت حدودها ويزداد رجالها))[١٠].

هكذا نجد إن القبيلة الكوردية كانت تشكل حينذاك نظاما إداريا واجتماعيا وحتى عسكريا لتسيير شؤون أفرادها والدفاع عنهم ضد القبائل الأخرى أو حتى ضد جيوش الدولة التي تهاجمها، حتى إن هناك من يقول ((إن الرجل الكوردي، وكذلك العائلة الواحدة، لا يستطيع أن يناضل في سبيل البقاء إلا في نطاق القبيلة))[١١]. أما نيكيتن فيذكر ((انه لا يمكن إطلاقا وضع تصميم عام لجميع القبائل فهناك عاملان دائما يؤثران على مصير القبيلة هما:

١- النمو والاندماج، وكلاهما يؤديان إلى ضم شمل هذه القبيلة حول محور واحد هو الزعيم الشجاع والبارع.

٢- التفسخ والتشتت بنتيجة الظروف السيئة (فقدان الزعيم أو الوباء أو الجوع) وكلاهما يحل القبيلة. [١٢]

يوجد على راس كل قبيلة رئيس هو (الاغا)[١٣] وتختلف طرق وصول الرئيس إلى السلطة تبعا للظروف والنمط الذي تعيش عليه القبيلة والفترة الزمنية، ويكون ذلك أما بالتتابع عن طريق الوراثة أو الانتخاب عن طريق القبيلة وكبار

الشخصيات أو التعيين عن طريق الحكومات أو غالبا ما تكون بالقوة[١٤].

ونتيجة لطبيعة كوردستان المتنوعة فان ذلك اثر بشكل واضح على طبيعة حياة القبائل الكوردية، لذلك ففي المناطق المرتفعة والغنية بمروجها الجبلية عمل الكورد في تربية المواشي، أما في السهول الخصبة فقد مارسوا الزراعة. ومن الصعب تمييز مناطق معينة تسود فيها الزراعة أو تربية الماشية فقط، إذ ان هاتين العمليتين كانتا دائما متجاورتين ومتزامنتين، ونظرا لاتساع المناطق الجبلية فان الدور المهم في العملية الاقتصادية كان دائما لتربية المواشي[١٥].

يمكننا ان نميز ثلاث فئات في المجتمع الكوردي حيث ان قسما من القبائل يعيش حياة متحضرة (المستقرين) وأخر في ترحال دائم (الرحل) وقسم أخر نصف متحضرين (شبه الرحل)[١٦] وكان المستقرون يمارسون الزراعة وتربية الماشية ويعيش معظمهم في القرى[١٧]، أما القبائل الرحل والتي تتنقل وراء مراكز الرعي[١٨]، فان تعودهم على حياة التنقل يجعل من الصعب عليهم التوجه إلى الزراعة التي تتطلب تغيير عاداتهم بالتالي، وعليهم القيام بالأعمال الزراعية في الوقت الذي يكونون فيه مشغولين تماما في العناية بقطعان الماشية في الجبال[١٩]، بالإضافة إلى التهرب من دفع الضرائب والذي شكل عاملا مهما حتى في قيام الانتفاضات، وفقدان الأمن بسبب الصراع العثماني – الإيراني[٢٠] والصراع بين القبائل نفسها، بالإضافة إلى البيئة القاسية التي كانوا يعيشون فيها، وهناك من يذهب إلى القول ((ان الكوردي قبل كل شيء رحالة، وحينما يستقر يفقد جزءا من شجاعته ومميزاته الخلقية))[٢١]، لذلك فقد كانت الكثير من القبائل تعيش حياة التنقل وكانت عملية الانتقال من الرعي إلى الزراعة بطيئة وليست مستمرة.

كانت القبائل تتوزع بين (اتحاد عشائر) وبين العشائر وفروعها مثل عشيرة (حيدرانلي) في الأجزاء الشمالية من كوردستان وعشيرة شكاك على الحدود العثمانية – الإيرانية وتجمع عشائر هكاري والتي تسكن مناطق جنوب بحيرة وان والزاب الكبير وعشيرة الجاف[٢٢] في المناطق المجاورة لنهر ديالي وسيروان وكانت حياتهم الاقتصادية تعتمد على تربية المواشي[٢٣]، لذلك كانوا يصعدون في

الأوقات الدافئة من السنة إلى المروج والمراعي الغنية الواقعة في قمم الجبال وفي المرتفعات ويعودون بقطعانهم إلى مناطقهم في الوديان والسهول بحلول نهاية فصل الصيف[٢٤]؛أما القسم الأخر أي شبه الرحل منهم يعملون بالزراعة ويعتبرون من المستقرين بصورة مؤقتة، وتنحصر فترة استقرارهم في الفترة بين موسم البذار وموسم الحصاد، أما في الأوقات الأخرى فيعملون في الرعي ويتوجهون إلى الجبال والأودية بصحبة قطعانهم بحثا عن الغذاء[٢٥].

ان اصل تسمية العشيرة الكوردية يختلف من مكان إلى أخر، ففي حالات خاصة كانت العشائر الساكنة في المناطق الجبلية في وسط وجنوب كوردستان تسمي بأسماء المناطق الجغرافية وفي حالات أخرى بأسماء مؤسسي السلالة أو العشيرة[٢٦].

كانت الأراضي المخصصة للعشيرة معلومة الحدود ولا يجوز لأية قبيلة التجاوز على أراضي القبائل الأخرى ورئيس القبيلة العادل يقسم الأراضي الزراعية والمراعي بين أبناء العشيرة كل حسب حاجته وقابليته للاستثمار أو الاستغلال، وأفراد القبيلة لم يكونوا في حل من التزامات معينه تجاه رئيس القبيلة وذلك بتزويده بقسم معين من المحصول الزراعي أو الحيواني لقاء قيام رئيس القبيلة بإدارة شؤون القبيلة أو اتخاذ تدابير حمايتها من القبائل المجاورة وقيامه بشؤون الضيافة وغيرها[٢٧]؛وهكذا كانت القبائل الكوردية تعيش في مرحلة المجتمع الإقطاعي والذي يتميز بنظام قبلي رئاسي، ومن جانب أخر فان القسم الأعظم من المواشي والأراضي كانت تعود للإقطاعيين[٢٨].

من الصعب إعداد إحصائية دقيقة لجميع القبائل الكوردية حينذاك وذلك بسبب العدد الكبير لتلك القبائل وعدم استقرار العديد منها من حيث السكن أو العدد فقد ظهرت الكثير من المؤلفات عنها في فترات مختلفة[٢٩].

تضاربت أراء الكتاب والرحالة عن صفات الكورد، ولعل الكورد من اكثر الأقوام في الشرق الاوسط الذين أسيء إلى سمعتهم من قبل جيرانهم أو من قبل الرحالة الغربيين[٣٠]. إلا ان هناك أيضا من انصفوا في تقييمهم ونقلوا ماشاهدوه

بأمانة دون أن يقوموا بتعميم حالة فردية على الشعب الكوردي بأكمله، فمثلا يشيد (أمبريه جوبير) مبعوث نابليون للتفاوض مع شاه إيران سنة ١٨٠٦م بصفات الكورد[٣١]، ويؤيده في ذلك مولتكه[٣٢]وهو يحارب الكورد ويدون في يومياته ليوم (٢٢ حزيران ١٨٣٨م) ويقول ((إذا هم علموا بمقدم ضيف أو أن ضيفا حل بينهم فان مجموعة من الرجال المسنين والمعروفين تترك القرية مسافة للهروع إلى استقبال الضيف ويوصلونه في جو من التوقير والاحترام إلى القرية وعندما ينزلونه من الفرس فانهم سرعان ما يكونون إلى جانبه، وإذا وصل إلى محل مرتفع أو سلم فانهم يمسكون بكتفه وذراعيه على جناح السرعة ويساعدونه على الصعود، وحيث يجلس ينزعون من قدميه الحذاء ويفرشون له فراشا وثيرا ونظيفا ويقف صاحب البيت على قدميه أمام الضيف، وإذا نزل عند رغبة الضيف وجلس فانه يستند في الجلوس على ركبتيه وإذا شرب القهوة بناء على طلب الضيف فانه يشربها شاكرا للضيف قائلا: عندما أقبلت فان الروح والمال، ملك يمينك وليس لي، وكلما امتدت الإقامة بالضيف فانه يكرم اكثر، انهم لا يتذمرون من الضيف ولا يملون منه إطلاقا وعند مغادرة الضيف لهم، فانهم يقدمون إليه هدايا ثمينة ... ويختم مولتكه حديثه بالقول: سأشكر إلى الأبد ضيافة هؤلاء الكورد لي وسوف اذكرها ما دمت على قيد الحياة))[٣٣]، أما البريطاني (ريج)[٣٤] فانه ينهي رحلته إلى كوردستان بالقول ((وإنني ابارح كوردستان بأسف لا حد له، فما كنت أتوقع مطلقا ان أجد فيها أطيب الناس الذين لاقيتهم في الشرق كله، فقد عقدت الصداقة فيها وعوملت بإخلاص متناه أينما حللت، وبلطف وبضيافة لا حد لهما، وأخشى إنني سوف لا انتظر مثل هذه المعاملة خلال سياحتي المضنية، ولسوف تبقى هذه الذكريات عالقة في قرارة نفسي ما حييت))[٣٥].

أما المرأة فان البحث في حالتها مهم جدا لتحديد أخلاق أي شعب، يعتبر الكورد اكثر تسامحا من جميع الشعوب الإسلامية في هذا الصدد، والمرأة تقوم بأعمال بيتيه شاقة إضافة إلى تربية الأولاد، والنساء الكورديات غير محجبات ويجلسن مع الجماعة بشجاعة وبدون استحياء، وغالبا ما يشاركن الرجل في

الحوار[٣٦]وليس من عادات الكورد الحد من حرية نسائهم، بل ان كثيرا من الرذائل المنتشرة في الشرق تكاد تكون مجهولة عندهم[٣٧]، والكوردي مشهور باحترامه الفائق للنساء ولا يعدد زوجاته إلا نادرا، ويراها تتصف بالمؤهلات ذاتها التي يتصف هو بها، والمرأة الكوردية تستقبل الزوار في غياب زوجها[٣٨].

يقارن (ريج) المرأة الكوردية مع مثيلاتها في البلاد المجاورة لكوردستان فيقول ((ان مقام النساء في كوردستان افضل بكثير من مقامهن في تركيا أو إيران واعني بذلك ان أزواجهن يعاملوهن على قدم المساواة وإنهن يسخرن من خضوع النساء التركيات خضوع العبيد ويحتقرهن وهناك ما يشبه الاستقرار العائلي في كوردستان وهو أمر معدوم في تركيا تماما))[٣٩]. والواضح انه قد بالغ في وصفه ومقارنته وعمم الحالة على كل النساء، فحتى إذا كان مقام نساء الكورد افضل من نساء الترك فليس هناك ما يثبت على احتقارهن للنساء التركيات، بل من الأصح القول ان المرأة التركية كانت تطمح إلى الاستقرار العائلي والمساواة التي تتمتع به المرأة في كوردستان.

مما لا شك فيه انه كان للمرأة الكوردية دور في المعارك خلال الدفاع ضد الغزاة[٤٠]، وهذا ما يؤكده برانت في تموز سنة ١٨٣٨م حيث ينقل عن زوجة رئيس عشيرة كوردي في إحدى القرى بين موش وآمد فيقول ((لقد أخبرتني بأنه متى ما هوجم زوجها في منزله أو بين أهله وعشيرته كانت هي إلى جانبه دوما تحشو الأسلحة بالرصاص في الوقت الذي كان يقاتل المهاجمين ويمطر الغزاة بوابل من نيران الأسلحة، وهذا هو حال كل السيدات المقاتلات في كوردستان اللائي غالبا، ما يقمن بدور فاعل ونشط أثناء احتدام المعارك))[٤١]، ويؤكد العديد من المهتمين والباحثين على مشاركة المرأة الكورية ومساعدتها للرجل أثناء المعارك[٤٢]، بل كانت نساء عشائر البلباس قد اشتركن في حمل السلاح أثناء التصدي لحملة الوالي (احمد باشا) منتصف القرن الثامن عشر[٤٣].

من الميزات الأخرى التي يتصف بها المجتمع في كوردستان، التعددية القومية والدينية[٤٤]، ورغم تلك التعددية إلا انه كان هناك شيء مشترك يجمعهم، إلا وهو

المعاناة من الاضطهاد والاستغلال والظروف القاسية التي عاشتها كوردستان، بالإضافة إلى الكثير من الصفات المشتركة للبنية الاجتماعية لهم، والاهم من كل ذلك، ان كوردستان كانت مثالا للتسامح والتعايش بين مختلف القوميات والأديان، واذا ظهر خلاف ذلك في تاريخ كوردستان فانه لم يكن سوى جزء من مخططات الدول التي سيطرت على كوردستان أو التي استغلت ذلك لترسيخ نفوذها وتحقيق مطامعها وإحكام سيطرتها على كوردستان أو قد تكون خلافات شخصية لا تمت إلى التعصب القومي أو الديني بشيء.

أن الشعب الأرمني الذي كان يتركز وجوده في وسط وشمال كوردستان كانت تربطه علاقات تاريخية جيدة مع الشعب الكوردي وخلال القرون التي خضعت فيه الأمتان للسيطرة العثمانية لم تنقطع العلاقات والاتصالات الاجتماعية والاقتصادية القوية بين الأرمن والكورد[٤٥]، وكانت تسود بينهما علاقات صداقة حميمة، وكان الكورد يحترمون شعائر وطقوس الأرمن الدينية[٤٦]. وإذا كان الإقطاعيون الكورد يظلمون الفلاحين الأرمن، فان هذا الظلم يشمل الفلاحين الكورد أيضا، أي انه كان ذا طابع طبقي وليس قومي أو ديني[٤٧]. وفي المجال السياسي فقد كان لهم دور بارز واحتلوا مواقع مهمة في حكومة إمارة بوتان، وخاصة في عهد الأمير بدرخان (١٨٢١-١٨٤٧م)[٤٨]. إلا إن الحكومة العثمانية كانت تعمل في سبيل زرع بذور الفرقة والشقاق بين الشعبين ليضعفا ولايكون في إمكانهما الاتفاق وتوحيد الجهود للتحرر من سيطرتها، ويمكن القول أن الحكومة العثمانية نجحت في مساعيها إلى حد ما[٤٩].

وكان الاثوريون يقطنون في منطقة هكاري وفي ولاية الموصل ومدن آمد وماردين والرها[٥٠]،فقد كانوا على تآلف مع الكورد حتى منتصف القرن التاسع عشر، حيث بدأت البعثات التبشيرية والرحالة الأجانب والدبلوماسيين يفتحون أفاقا جديدة للآشوريين[٥١]ومتجهين بهم نحو الدول التي يمثلونها، في حين أن تشدد العثمانيين، في الوقت نفسه، في رقابتهم على الأمراء الكورد يدفع هؤلاء إلى أن يكونوا اكثر تحكما في سلطتهم[٥٢]. وعن التسامح وأجواء الحرية التي عاشوها

يقول (مالك) ((أما الذين احتموا في مناعة جبال هكاري فقد استمتعوا بالحرية والإدارة الذاتية حتى عام ١٩١٤م))[٥٣]بينما يصف (أيفري) العلاقات بين الكورد والآشوريين أوائل القرن التاسع عشر فيقول ((الكورد القاطنون في المناطق الآشورية كانوا يخضعون للسلطة المدنية للرؤساء الآشوريين وفي الجانب الأخر كان الآشوريين القاطنون في المناطق الكوردية يطيعون القادة الكورد الذين كانوا مستقلين عن الترك))[٥٤]وكانت هناك غالبا تحالفات بين العشائر الآشورية والقبائل الكوردية القريبة منهم حتى انه كان هناك اتحاد عشائر (هەڤيركان) يضم عشائرا من الكورد المسلمين والايزديين ومعهم المسيحيين أيضا[٥٥].

أما البنية الاجتماعية للاثوريين فقد عاشوا ضمن ثلاثة أصناف، فالمستقلون يتصلون بالحكومة المركزية عن طريق البطريرك (مار شمعون) وذلك لعدم وجود إدارة تركية فيها، وشبه المستقلين عاشوا في مجاميع تنطبق عليهم بعض القوانين العثمانية، وغير المستقلين يخضعون مباشرة لقوانين الحكومة المركزية، والمناطق المستقلة هي ست (ديز - جلو - باز - تخوما - تياري العليا - تياري السفلي)[٥٦]كما احتفظ الأثوريين بوضعهم الاجتماعي القديم وهو النظام الإقطاعي المتوارث مع مخلفاته وعلاقاته القبلية، وقد ظهرت العلاقات القبلية في الزراعة حيث كانت الأرض ترجع بالدرجة الرئيسية للبطريرك ورجال الدين والملوك، أما أماكن الرعي والمياه وأدوات الحراثة فكانت ملكيتها جماعية[٥٧].

أما التركمان والذين تركز وجودهم في خط تلعفر - طوزخورماتو مرورا باربيل وآلتون كوبري وكركوك، اقتصر دورهم على تقديم الدعم والإسناد المعنوي والمادي بمستوي معين للعثمانيين[٥٨]. يذكر (هومي) ((إن ولاة الموصل قد أجبروهم على السكن في هذا الخط قبل أربعة قرون لحماية الطرق وتأمين الممرات المؤدية إلى كوردستان ولما قويت شكيمتهم بحكم ما أمنوه للحكومة العثمانية المحلية من الخدمة والإخلاص التام، كان لها ان تطلق للمتنفذين منهم العنان في تلك الأوساط تحكم وتسيطر))[٥٩]، لأنها كانت موضع اعتماد السلطة العثمانية.

من جانب أخر فقد تميزت كوردستان بتعدد الأديان والمذاهب الدينية فالأكثرية